

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

يُونُسُ الصِّدِّيقُ

عبد الحميد جودة السحار

كان ليعقوبَ من البنين اثنا عشرَ ولداً ذكراً ،
وكان يوسفُ وأخوه بنيامينُ أصغرَهم ، وكان يعقوبُ
يُحِبُّ يوسفَ أكثرَ من إخوته ، ويُظهِرُ هذا الحبَّ ،
فِيغارُ إخوتهُ منه . وفي ذاتِ ليلةٍ ، دخلَ يوسفُ في
فراشه ونام ، فرأى حُلماً عجيباً ، فلما قام من نومه
ذهب إلى أبيه وقال له :

﴿ يا أبتِ إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ
والقمرَ ؛ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ .

ففكرَ يعقوبُ في حلمِ يوسفَ ، فعَرَفَ أنَّ اللهَ
سيجعلُه عظيماً في الدنيا والآخرة ، ولما كان يعقوبُ

يعرف أنَّ إخوة يوسف يغارون منه ، خاف أن تدفعهم
الغيرة ويحرضهم الشيطان فيؤذوه ، فقال له :

﴿ يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ، فَيَكِيدُوا
لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

وسكت يعقوب قليلا ، ثم قال ليوسف :

- لقد أراك الله هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها
يخصُّك ربُّكَ برحمته ، ويُعَلِّمُكَ تَفْسِيرَ الْأَحْلَامِ ، وَيُتِمُّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيُنَالُ آلَ يَعْقُوبَ بِسَبِيلِ الْخَيْرِ
الكثير .

سيجعلك الله عظيما ، ويُعْطِيكَ النُّبُوَّةَ كَمَا
أَعْطَاهَا لِأَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ .

واستمرَّ يعقوب يكلم يوسف ، ويوسف يسمع
منه ، ويُفَكِّرُ فِي هَذَا الْحَلْمِ الْعَجِيبِ .

٢

كَانَ يَعْقُوبُ يَحْتَضِنُ يَوْسُفَ وَأَخَاهُ بَنِيَامِينَ
وَيُلَاعِبُهُمَا ، وَكَانَ أَوْلَادُهُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُشْغُولٌ
عَنَّهُمَا بِهِمَا ، فَيُحَسِّنُونَ غِيظًا ، لِأَنَّ يَوْسُفَ وَبَنِيَامِينَ
انفردا بحبه ؛ وَتَرَكَ الْأَوْلَادُ الْمَكَانَ ، وَخَرَجُوا
يَتَحَدَّثُونَ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ غَضَبَانُ :

- إِنَّ أَبَانَا يُحِبُّ يَوْسُفَ وَأَخَاهُ أَكْثَرَ مِنَّا .

وَقَالَ آخَرُ فِي غَيْظٍ :

- إِنَّا جَمَاعَةٌ ، وَإِنَّا أَحَقُّ بِالْحُبِّ مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ .

وَقَالَ ثَالِثٌ :

- إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

وَقَالَ رَابِعٌ :

- اقْتُلُوا يَوْسُفَ ، أَوْ أَبْعِدُوهُ إِلَى أَرْضٍ لَا يَرْجِعُ

منها ، فَبَقِيَ لَنَا حَبُّ أَبِينَا ، ثُمَّ نَتُوبُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْفِعْلَةِ ، وَنُصْبِحُ نَاسًا صَالِحِينَ .

وَارْتَفَعَ صَوْتُ يُوَافِقٍ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ :
- فَلَنَقْتُلُهُ لِنَسْتَرِيحَ مِنْهُ .

وَكَادُوا يُوَافِقُونَ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَكِنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ قَالَ :

﴿ لَا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .
فَصَاحَ أَحَدُهُمْ :

- هَذَا هُوَ الرَّأْيُ .

وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يُلْقُوا يَوْسُفَ فِي الْجُبِّ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ ، وَيَخْلَوْ لَهُمْ وَجْهٌ أَبِيهِمْ .

ذَهَبَ الْأَوْلَادُ إِلَى أَبِيهِمْ ، فَوَجَدُوهُ يَحْتَضِنُ يَوْسُفَ وَيُلَاعِبُهُ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :

- يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَدَعُ يَوْسُفَ يَذْهَبَ مَعَنَا لِيَلْعَبَ ؟

فَقَالَ يَعْقُوبُ :

- لَا أَطِيقُ أَنْ أَفَارِقَهُ سَاعَةً .

فَقَالَ آخَرُ :

- أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَلْعَبُ وَيَتَمَتَّعُ .

فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ :

- إِنِّي لَيُحْزِنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ .

- اتْرَكْهُ يَلْعَبُ وَيَفْرَحُ ، فَإِنَّهُ مَحْبُوسٌ هُنَا دَائِمًا .

- أَخَافُ أَنْ تَشْتَغِلُوا فِي لَعِبِكُمْ وَتَنْزِكُوهُ ، فَيَأْتِي

الذئب فيأكله .

فقال قائل منهم :

- كيف يأكله الذئب ونحن كثيرون ؟!

والتفوا بأبيهم يقولون :

- لا تخش عليه شيئاً ، دغ يوسف يخرج معنا يفرح ويلعب ، لماذا لا تأمننا على يوسف ونحن نحبه ، ونحب أن يذهب معنا .

واستمروا يرجون أباهم حتى قبل رجاءهم ، وأرسل يوسف معهم ، فخرجوا من عنده مسرورين .

٤

خرج الأولاد ، وخرج يوسف معهم ، وما غابوا عن عيني أبيهم حتى أخذوا يشتمون يوسف ويهينونه ، وساروا حتى إذا وصلوا إلى البئر ، أخذوا

من يوسف قميصه الذي على جسمه ، ودلوه في البئر وذهبوا .

وجد يوسف نفسه في الحبّ فشعر بخوف ، ولكن لم يستمر هذا الخوف طويلاً ، لأن الله أذهب عنه الخوف ، وأخبره أنه لا بد له من مخرج من هذه الشدة ، وأنه سينجو ويعيش مكرماً .

ووقف الأولاد يفكرون فيما يقولونه لأبيهم ، فأروا أن يقولوا إن الذئب أكله ، وأرادوا أن يبرهنوا له على صدقهم ، فأخذوا قميص يوسف ولطخواه بدم مغزى ذبحوها .

انتظر الأولاد حتى غابت الشمس وجاء الليل ؛ ثم دخلوا على أبيهم وهم يبكون . فلما رآهم يعقوب ولم ير يوسف معهم شعر بانقباض ، وقال لهم في لهفة :

- أين يوسف ؟

﴿ قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسفَ
عِندَ متاعِنَا (أى أشياءنا) فأكله الذئب ﴾ .

فقال يعقوب فى غضب :

- تكذبون .

- إنا نعلم أنك لن تُصدّقنا ، ولكن هذا قميصه .

وقدّموا له قميصه ، فوجد به آثار دم ، ولكن لم
يجد به أثر أسنان ، فقد نسوا أن يخرقوه ، فعلم أنهم
فعلوا بأخيهم شيئاً ، وأن الذئب لم يأكله .

وحزن يعقوب على يوسف ، ولكنه صبر على
حُزنه ، وقال لأولاده :

- بل فعلتم بأخيكُم أمرا ، فصبرٌ جميل .

٥

كانت قافلةٌ قادمةٌ من الشامِ ذاهبةً إلى مصر ،
ومرّت القافلةُ بالبئرِ التى ألقى فيها يوسف ، وذهبَ
رجُلٌ يحضِرُ ماءً ، فلما أدلى دلوهُ تعلّقَ فيها يوسف ،
فلما رآه ذلك الرجل فرح وقال : بُشْرى ! هذا
غلام . وأخذه وعادَ إلى القافلة .

وسافرَ التجارُ حتى وصلوا إلى مصر ، فذهبَ
الرجلُ بيوسفَ إلى سوقِ الرقيقِ لبيعه ويقبضَ ثمنه
وذهبَ وزيرُ مصرَ إلى السوقِ ، فلما رأى يوسفَ
أعجبَ به ، فتقدّمَ واشتراه بدراهم قليلة .

وعادَ الوزيرُ إلى بيته ومعه يوسف ، فلما دخَلَ
على زوجته فرحتْ بالغلام ، لأنها لم يكن لها أولاد
وقالَ لها الوزير :

- أَحْسِنِي إِلَيْهِ فَقَدْ يَنْفَعُنَا إِذَا كَبِرَ ، وَقَدْ نَجِدُهُ غُلَامًا طَيِّبًا ذَكِيًّا ، فَجَعَلَهُ ابْنًا .
وَبَقِيَ يَوْسُفُ فِي بَيْتِ الْوَزِيرِ ، يَحُوطُهُ بِعَظْفِهِ وَعَنَايَتِهِ .

وَمَرَّتِ السَّنُونَ ، وَكَبِرَ يَوْسُفُ ، حَتَّى شَبَّ فَكَانَ رَائِعَ الْحُسْنِ ، جَمِيلَ الصُّورَةِ .

٦

رَأَتْ امْرَأَةُ الْوَزِيرِ جَمَالَ يَوْسُفَ وَقُوَّتَهُ ، فَأَحْبَبَتْهُ .
وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ، لَبَسَتْ أَحْسَنَ ثِيَابِهَا ، وَتَزَيَّنَتْ وَدَخَلَتْ عَلَى يَوْسُفَ ، وَأَغْلَقَتْ الْبَابَ خَلْفَهَا ،
وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَأَرَادَتْ أَنْ تُظْهِرَ لَهُ حُبَّهَا ، فَقَالَتْ لَهُ :
- أَنَا لَكَ ، وَمِلْكُ يَدِكَ .

وَنَظَرَ يَوْسُفُ إِلَى جَمَالِهَا ؛ وَلَكِنَّهُ تَذَكَّرَ رَبَّهُ الَّذِي

خَلَّصَهُ مِنَ الْجُبِّ ، فِدَارَى وَجْهَهُ وَقَالَ :
- مَعَاذَ اللَّهِ ، زَوْجُكَ هُوَ سَيِّدِي ، وَقَدْ أَكْرَمَنِي وَأَحْسَنَ إِلَيَّ ؛ فَلَا أُسِيءُ إِلَيْهِ ، وَلَا أَغْصِي رَبِّي الَّذِي أَنْقَذَنِي .

وَذَهَبَ إِلَى الْبَابِ لِيَفْتَحَهُ وَيُخْرِجَ ، فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ تَشُدُّهُ ، فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ فَانْشَقَّ مِنَ الْخَلْفِ ، وَفَتَحَ يَوْسُفُ الْبَابَ فَرَأَى الْوَزِيرَ أَمَامَهُ ، فَلَمَّا رَأَتْ زَوْجَتَهُ الْوَزِيرُ زَوْجَهَا وَاقِفًا ، أَرَادَتْ أَنْ تَتَّهَمَ يَوْسُفَ بِأَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَزَوْجِهَا :

- لَقَدْ أَرَادَ يَوْسُفُ بِامْرَأَتِكَ سُوءًا ، وَإِنَّ جَزَاءَهُ السَّجْنُ أَوْ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ .

فَقَالَ يَوْسُفُ يَدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ :

- إِنَّهَا هِيَ الَّتِي عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيَّ .

وَغَضِبَ الْوَزِيرُ ، وَجَاءَ رَجُلٌ كَانَ قَرِيبَ زَوْجَتِهِ ،
فَلَمَّا سَمِعَ الْقِصَّةَ مِنَ الْوَزِيرِ قَالَ لَهُ :

- إِذَا كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ شُقَّ مِنْ أَمَامٍ ، فَهِيَ صَادِقَةٌ
وَهُوَ كَاذِبٌ ، وَإِذَا كَانَ قَمِيصُهُ شُقَّ مِنْ خَلْفٍ ، فَهُوَ
صَادِقٌ وَهِيَ كَاذِبَةٌ .

وَوُجِدَ قَمِيصُهُ شُقَّ مِنْ خَلْفٍ ، فَنَظَرَ الْوَزِيرُ إِلَى
زَوْجِهِ فِي غَضَبٍ ، وَقَالَ لَهَا :

- إِنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنْ مَكْرِكٍ ، وَالنِّسَاءُ مَكْرُهُنَّ
عَظِيمٌ .

وَنَظَرَ إِلَى يَوْسُفَ وَقَالَ لَهُ :

- لَا تَذْكُرْ مَا حَصَلَ لِأَحَدٍ .

وَطَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِهَا وَأَنْ
تَتُوبَ .

٨

اجْتَمَعَ نِسَاءُ الْأَمْرَاءِ وَبَنَاتُ الْكُبَرَاءِ ، وَتَحَدَّثْنَ عَنْ
امْرَأَةِ الْوَزِيرِ ، وَكُنَّ يَلْمُنَهَا عَلَى حُبِّهَا لِيَوْسُفَ ،
قُلْنَ :

- امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى يَوْسُفَ . إِنَّهَا
امْرَأَةٌ سَيِّئَةٌ .

وَسَمِعَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ بِتَشْنِيعِ النِّسَاءِ ، لِأَنَّهَا أَحَبَّتْ
فَتَاهَا ، فَغَضِبَتْ ، وَأَرَادَتْ أَنْ تُظْهِرَ لَهَا عُذْرَهَا ،
فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ فَجَمَعَتْهُنَّ فِي مَنْزِلِهَا ، وَأَحْضَرَتْ لَهَا
تُفَاحًا ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا ، ثُمَّ أَلْبَسَتْ
يَوْسُفَ أَحْسَنَ الثِّيَابِ ، وَأَمَرَتْهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِنَّ ،
فَخَرَجَ يَوْسُفُ إِلَيْهِنَّ بِجَمَالِهِ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ لَمْ يُصَدِّقْنَ
عَيُونَهُنَّ ، فَمَا كَانَ فِي بَنِي آدَمَ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَأَخَذْنَ

يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي دَهْشٍ ، وَنَسِينَ أَنْفُسَهُنَّ ، وَجَعَلْنَ
يَحْزُنَ فِي أَيْدِيهِنَّ بِالسَّكَاكِينِ بَدَلَ أَنْ يَقْطَعَ التُّفَاحَ ،
وَلَا يَشْعُرْنَ بِالْجِرَاحِ ، وَقُلْنَ :

﴿ حَاشَ لِلَّهِ ، مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ

كَرِيمٌ ۝ ﴾ .

فَقَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ لَهَا :

— هَذَا الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ ، وَقَدْ طَلَبْتَهُ لِنَفْسِي

فَامْتَنَعَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ بِهِ لُيَسْجَنَنَّ .

فَقَالَتْ لَهُ النِّسْوَةُ :

— لِمَاذَا لَا تَسْمَعُ لِسَيِّدَتِكَ ؟

قَالَ :

﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۝ ﴾ .

وَامْتَنَعَ يُوسُفُ عَنْ أَنْ يُطِيعَ كَلَامَ سَيِّدَتِهِ ، لِأَنَّهُ

كَانَ يَخَافُ اللَّهَ .